من الإعجاز في سورة القارعة (دراسة بيانية اسلوبية)

One of the miracles in Surat Al-Qara’ah (graphic stylistic study)

أ.م.د. غازي صالح جمعة
Asst.Prof.Dr. Ghazi Saleh Jumaa
جامعة سامراء / كلية العلوم الاسلامية
University of Samarra / College of Islamic Sciences
E-mail: Ghazy.9a17@uosamarra.edu.iq

الكلمات المفتاحية: القارعة، الاعجاز، قوله تعالى، الآخرة، المفسرون، الناس.

Keywords: Al-Qari’ah, the miracle, the Almighty’s saying, the afterlife, the commentators, the people.

الملخص

مما لا شـك فيه على كل عاقل وما لهذا الكتاب المعجِز بنظمه وبتلاوته وتركيبه فضـلا عن أسـلوبه، وكيف أنّ كلام الله (سـبحانه وتعالى) قد تجلّى بصـور عديدة تفوق كلمات البشـر المتمثلة – باللغة العربية واسلوبها– وعلى أساس ذلك فقد درس العلماءُ اللغةَ والتفسير وتبحّروا فيها وفي أسـاليبها، وبحثوا في تفاصـيل دقائقها ؛ كونهم يقرون أنّ اللغة هي لسـان المجتمع العربي، إذ نرى ان اللغات الاخرى تهرم وتفنى مع ما يقابلها من اصالة وتجدد للغة العربية، كون اللغة العربية التي شرّفها الله بوصفها المعبِّر الصادق لكلام المُبْدِع – جلّت حكمته – فقد خلّدها الله وفضّلها عن سائر اللغات، والمستشرف لهذا الكتاب العظيم، يجد العجب الباهر، من كل نواحي اللغة من بلاغة، وتركيب، وأسلوب، وتصوير وغيرها الكثير.

Abstract

Every rational person has no doubt about the miraculous nature of this book, with its organization, recitation, and composition, as well as its style, and how the word of God (Glory be to Him) has been revealed in many forms that surpass the words of humans represented - in the Arabic language and its style - and on the basis of that, scholars have studied the language and interpretation and delved into it. Its methods, and they investigated the details of its subtleties. Because they acknowledge that the language is the tongue of Arab society, as we see that other languages age and perish with the corresponding originality and renewal of the Arabic language, since the Arabic language, which God honored as the true expression of the words of the Creator - glory be to Him - God has immortalized it and preferred it over all other languages, and the one who foresees this The great book finds dazzling wonder in all aspects of the language, including eloquence, structure, style, photography, and many others.

المُقَدّمَة

الْحَمد لله رَافع الدَّرَجَات لمن انخفض لجلاله، وفاتح البركات لمن انتصب لشكر فضاله، وَالصَّلَاة وَالسَّلَام على من مدت عَلَيْهِ الفصاحة رواقها، وسدت بِهِ البلاغة نطاقها، الْمَبْعُوث بِالْآيَاتِ الباهرة والحجج الْمنزل عَلَيْهِ قُرْآن عَرَبِيّ غير ذِي عوج، وعَلى آله الهادين، وَأَصْحَابه الَّذين شادوا الدّين وَشرف وكرّم.

وأما بعد.

فلا يخفى على كل ذي لبّ ما لهذا الكتاب المعجِز بتلاوته وتركيبه وأسلوبه، وكيف أنّ كلام الحقّ سبحانه تجلّى بصور كلمات البشر المتمثلة – باللغة العربية– وعلى هذا درس العلماءُ اللغةَ وتبحّروا فيها وفي أساليبها، وفتّشوا في دقائقها ؛ لأنهم يقرون أنّ اللغة هي بنت المجتمع، تولد ثم تكون في مرحلة الشباب، ثم تشيخ ومن ثمّ تموت، إلا أن اللغة العربية التي شرّفها الله بكونها المعبِّر الصادق لكلام المُبْدِع – جلّت حكمته – خلّدها الله وفضّلها عن سائر اللغات، والمستشرف لهذا الكتاب العظيم، يجد العجب الباهر، من كل نواحي اللغة من بلاغة، وتركيب، وأسلوب، وتصوير.

لذلك انصرفت همتي إلى دراسة الاعجاز البياني والاسلوبي في سورة القارعة، والنظر فيما حوته السورة من جوانب إعجازية من حيث البلاغة والبيان والأسلوبية والتركيب والتصوير.

أهمية البحث:

تبرز أهمية البحث كونه يتحدث عن الاعجاز في سورة القارعة دراسة بيانية اسلوبية، وابراز رأي العلماء في هذه المسائل اذ درسوها باستفاضة دقيقة وخرجوا من ذلك ببيان تام وتوضيح لهذه المسائل.

سبب اختيار الموضوع:

ان سبب اختياري لهذا الموضوع يكمن في توضيح وبيان اسلوب المفسرين وعلماء اللغة في توضيح ما جاء في سورة القارعة من قضايا بيانية اسلوبية فيما يخص الاعجاز القرآني.

الدراسات السابقة:

لاشك ان هناك تفاسير وكتب ومؤلفات كثيرة تتحدث عن الاعجاز القرآني في سور القرآن كلها وان اكثر المفسرين قد تناولوا هذه المسائل بدقة، ومنها تفسير الطبري، وتفسير الرازي، والبحر المحيط، وغيرهم الكثير، فالذي أراه ان مكمن أهمية هذا الموضوع هي في ماصال وجال به العلماء السابقون رحمهم الله تعالى.

وقد اقتضت متطلبات البحث أنْ تتوزع خطته على مبحثين:

المبحث الأول: مناسبة السورة لما قبلها واستخدام لفظة القارعة.

المبحث الثاني: تحليل الآيات بيانيا وأسلوبياً

وما كان في البحث من صواب فهو من الله تعالى، وما كان من خطأ فهو من نفسي.

وأسأله تعالى أنْ يوفِّق وييسر، وأنْ يغفر ويرحم.

المبحث الأول: مناسبة السورة لما قبلها واستخدام لفظة القارعة

المطلب الأول: مناسبة السورة لما قبلها

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١ ﴾ (القارعة، ١-١١)

إنّ مناسبة هذه السورة لما قبلها – أعني بها سورة العاديات – مناسبة ظاهرة، فقد جاء في سورة العاديات قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨ ﴾ (العاديات، ٦-٨) فقد أخبرنا الله تعالى بطبيعة الإنسان وجحوده، وكيف أن هذا الجحود وحبّ المال أنساه الآخرة وأهوالها ولهذا ختمها بقوله: ﴿ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴾ ، ثم فصّل حاله ومآله في الآخرة فقال في سورة القارعة: ﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴾ وهذا غاية اللطافة والجمال في قوّة المناسبة والارتباط (الشيخ العلامة محمد الامين، ٢٠٠١، ٣/٢)؛ ولهذا نجد أنّ القرآن العظيم قطعة واحدة يأخذ بعضه بأيد بعض، وهذا من إعجاز المبدع وعظيم حكمته، واقد انتبه المفسرون – رحمهم الله – إلى علاقة هذه السورة بما قبلها. قال أبو حيّان: (هَذِهِ السُّورَةُ مَكِّيَّةٌ. وَمُنَاسَبَتُهَا لِمَا قَبْلَهَا ظَاهِرَةٌ، لِأَنَّهُ ذَكَرَ وَقْتَ بُعْثِرَتِ الْقُبُورُ، وَذَلِكَ هُوَ وَقْتُ السَّاعَةِ).(ابو حيان الاندلسي، ١٤٢٠هـ ٥٣٢/١٠)

المطلب الثاني: لماذا لفظة (القارعة)؟

﴿ٱلۡقَارِعَةُ ۝١﴾ للوهلة الأولى قد يقول قائل لِمَ قال (القارِعة) ولم يقل (الضـاربة) أو (الطّارِقَة) ؟

بالرجوع إلى جذور هذه الكلمات نجد أنّ جذر (قَ رَ عَ): (الْقَافُ وَالرَّاءُ وَالْعَيْنُ مُعْظَمُ الْبَابِ ضَـرْبُ الشَّـيْءِ. يُقَالُ قَرَعْتُ الشَّـيْءَ أَقْرَعُهُ: ضَـرَبْتُهُ... وَالْقَارِعَةُ: الشَّـدِيدَةُ مِنْ شَـدَائِدِ الدَّهْرِ; وَسُـمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّهَا تُقْرِعُ النَّاسَ، أَيْ تَضْـرِبُهُمْ بِشِـدَّتِهَا. وَالْقَارِعَةُ: الْقِيَامَةُ؛ لِأَنَّهَا تَضْـرِبُ وَتُصِـيبُ النَّاسَ بِإِقْرَاعِهَا).(ابن فارس، ١٩٧٩، ٧٢/٥) والْقَرْعُ الضَّـرْبُ بِشِـدَّةٍ وَاعْتِمَاد،(الرازي ١٤٢٠هـ، ٢٦٥/٣٢) بحيث يحصـل منه صـوت،(البروسوي، ١١٢٧هـ، ٤٩٩/١٠) ولهذا سـميت القارعة (لأنها تقرع الأسـماع، وفي ضـمن ذلك القلوب).(ابو محمد عبدالحق، ١٤٢٢هـ، ٥١٦/٥) إذن معناه العام الضرب بشدة وصوت، وفي الجذر (ضَ رَ بَ): (الضَّادُ وَالرَّاءُ وَالْبَاءُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، ثُمَّ يُسْـتَعَارُ وَيُحْمَلُ/ مِنْ ذَلِكَ ضَـرَبْتُ ضَـرْبًا، إِذَا أَوْقَعْتَ بِغَيْرِكَ ضَـرْبًا).(ابن فارس، ١٩٧٩، ٣٩٧/٣-٣٩٨).

وفي جذر (طَ رَ قَ): (الطَّاءُ وَالرَّاءُ وَالْقَافُ أَرْبَعَةُ أُصُولٍ، أَحَدُهَا: الْإِتْيَانُ مَسَاءً، وَالثَّانِي: الضَّـرْبُ، وَالثَّالِثُ: جِنْسٌ مِنِ اسْـتِرْخَاءِ الشَّـيْءِ، وَالرَّابِعُ: خَصْـفُ شَـيْءٍ عَلَى شَـيْءٍ) (ابن فارس، ١٩٧٩، ٤٤٩/٣).

فإذا ما أردنا أن نوازن بين هذه الدّلالات الثلاث، وسـياق النّص كي نسـتطيع أن نعرف سّر اختيار هذه اللفظة أيهما أنسـب لحالة يوم القيامة؟ ونحن نعرف أنّ محور الصـورة هو أهوال يوم القيامة وشدائدها وما فيها من أحداث عظام حيث يهيم الناس على غير نظام من شدة حيرتهم وفزعهم وذهولهم للموقف الذي هم فيه !!.

عرفنا أن أنسـب لفظة هي (القارعة) بما تحمله من جَرْس صـوتي يمثل دلالة هذا الفعل تمثيلا يأسر النفس البشرية معه، فالقاف مثلا حرف مُستَعْلٍ – انفجاري– مُفَخَّم بل هو أشدّ مراتب التفخيم سـيّما وهو مقرون بالألف بعده، والراء حرف يحمل صـفة التكرير مما يمثل صـورة القرع والضـرب مرارا وتكرارا !!، والعين حرف فيه صـفة التهوع وهو من الحروف البَيْنِيَّة – ببين الرخاوة والشـدة –(ابن الجزري، ٢٠٠١، ١٠) وعلى هذا فإننا نجد هذه الدلالات مجتمعة في كلمة واحدة تمثلها تمثيلا يجسد مشهدا من صوت وصورة اختزلت في كلمة واحدة، لا نجدها في مرادفاتها ؟ عرفنا حينئذ سرّ اختيار هذه اللفظة وكيف أنها أضفت للصورة عنصر الحركة والتكرار.

ثم إن لفظة (القارعة) تكاد تكون مرتبطة بِجُلّ آيات السـورة كما سـنعرف بعد قليل، فهي تمثل دلالة مركزية ذات تأثير حسيّ يأسر النفوس السليمة.

والملاحظ عن تركيبها النحوي أنها جاءت على التَحْذِير وَقَدْ جَاءَ التَّحْذِيرُ بِالرَّفْعِ وَالنَّصْبِ كما يقال: الْأَسَدُ الْأَسَدُ، فيجوز الرفع والنصب. وتحتمل الإضمار أَيْ سَتَأْتِيكُمُ الْقَارِعَةُ أو على الرفع بِالِابْتِدَاءِ وَخَبَرُهُ: مَا الْقارِعَةُ، أو يكون الْخَبَرُ. وما أدراك ما القارعة فإن قيل: إذا أخبرت عن شيء بشيء فلا بد وأن تستفيد منه علما زائدا، وقوله: وما أدراك يفيد كونه جاهلا به فكيف يعقل أن يكون هذا خبرا؟ قلنا: قد حصل لنا بهذا الخبر علم زائد، لأنا كنا نظن أنها قارعة كسائر القوارع، فبهذا التجهيل علمنا أنها قارعة فاقت القوارع في الهول والشدة.(الرازي، ١٤٢٠هـ، ٣٢/٢٦٥-٢٦٦) وإنما الإعراب الأول هو الأنسب – والله أعلم – لمقام النص ولمقصدية التهويل، لما فيه من إثارة التوتر عند المتلقي.. فالإنسان مفطور على ترقب (المسند) كلما وقع في سمعه (مسند إليه) وتأجيل ذكره – أو عدم حصوله– يفضي إلى زيادة مدة التوتر واشتداده..

كيف و توتر غياب الخبر – الذي يشرئب له العنق– يعضده هنا حصول امتلاء السمع بجرس كلمة(القارعة) !!!

المبحث الثاني: تحليل الآيات بيانيا وأسلوبياً

أولاً: الآية الثانية (مَا الْقَارِعَةُ):

﴿ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ۝٢ ﴾

وضع الظاهر مكان الضمير لزيادة التخويف والتهويل في صورة من صور التكرار اللفظي مما يثير التوتر والقلق لدى السامع !. فإن قال قائل لِمَ لم يقلْ: القارعة ما هي؟ جريا على الشائع من لغة العرب؟ وجواب ذلك دليل على أن سكوته على المبتدأ (ابو حيان الاندلسي، ١٤٢٠هـ، ١٠/٥٣٨) لم يكن لظهور الأمر بل لخفائه وغرابته، وهذا وجه بليغ، وفيه وجه ظاهر وهو أن يقال: معناه أنه جملة واحدة استفهامية كأنه قال: القارعة ما هي؟ على سبيل الاستفهام غير أنه أقام المظهر مقام المضمر وقال: ﴿ ٱلۡقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ۝٢ ﴾ والإتيان بالمظهر إشارة إلى تعظيم أمرها حيث ذكرها ظاهرة مرتين.(الرازي، ١٤٢٠هـ، ٢٩/٣٨٩) فأيّ توتر بعد هذا ؟ وأيّ قلق ؟ والمتلقي يرتقب الحصول على الإخبار ! فلم يحصل إلا على سؤال مما يجعله واقعا تحت وطأة السؤال مرتين:السؤال المضمر في ذهنه الناشئ من سماعه الكلمة الغريبة (القارعة) (ما هذه القارعة) -السؤال الذي جاء في محل الجواب المرتقب، ما القارعة ؟؟؟ ولعلنا نتخيل تأثير هذا الأسلوب وبعده النفسي بإثارة المتلقي وتحريك كوامنه النفسية.

ثانياً: الآية الثالثة: (وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ). ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ۝٣ ﴾

تأجيل الإخبار مرة ثانية لتأجيج التشوق إلى ما سوف يأتي ونلحظ أن الآية مكونة من استفهامين: الثاني مكرر لما سبق، والأول متناسب مع حالة المتلقي المتلهف على المعرفة (وَمَا أَدْرَاكَ(أَيْ: (وَأَيُّ شَيْءٍ أُعَلِّمُكَ مَا الْحَاقَّةُ يَعْنِي إِنَّكَ لَا عِلْمَ لَكَ بِكُنْهِهَا وَمَدَى عِظَمِهَا، يَعْنِي أَنَّهُ

فِي الْعِظَمِ وَالشِّـدَّةِ بِحَيْثُ لَا يَبْلُغُهُ دِرَايَةُ أَحَدٍ وَلَا وَهْمُهُ وَكَيْفَمَا قَدَّرْتَ حَالَهَا فَهِيَ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ وَما فِي مَوْضِـعِ الرَّفْعِ على الابتداء وأَدْراكَ معلق عنه لتضـمنه معنى الاسـتفهام) (الرزاي، ١٤٢٠هـ، ٦٢٠/٣٠) فنجد تكرار كلمة (القارعة) في خواتم الفواصـل الثلاث، مع تكرار أسـلوب الاسـتفهام ثلاث مرات أيضـا وهذا من أسـاليب التهويل ما لا يجتمع في الكلام عادة، ثم يسـتوقفنا سـؤال لِمَ قال ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ ﴾ ولم يقل (وما أعلمك) ؟ ولِم جاء بصـيغة المضـارع ولم يأت بالماضـي (وما يدريك لعل الساعة قريب) وما الفرق بين الصيغتين ؟

وللإجابة على هذين السـؤالين لا بدّ لنا أن نوازن بين هتين الدلالتين، وسـياق النّص كي نسـتطيع أن نعرف سّـر اختيار هذه اللفظة أيهما أنسـب لحالة السـياق ومقامه ؟ قال ابن فارس: (عَ ل مَ) (الْعَيْنُ وَاللَّامُ وَالْمِيمُ أَصْـلٌ صَـحِيحٌ وَاحِدٌ، يَدُلُّ عَلَى أَثَرٍ بِالشَّـيْءِ يَتَمَيَّزُ بِهِ عَنْ غَيْرِهِ). (ابن فارس، ١٩٧٩، ١٠٩/٤).

(دَ رَ ي) (الدَّالُ وَالرَّاءُ وَالْحَرْفُ الْمُعْتَلُّ وَالْمَهْمُوزُ. أَمَّا الَّذِي لَيْسَ بِمَهْمُوزٍ فَأَصْـلَانِ: أَحَدُهُمَا قَصْـدُ الشَّـيْءِ وَاعْتِمَادُهُ طَلَبًا، وَالْآخَرُ حِدَّةٌ تَكُونُ فِي الشَّـيْءِ/ قَالَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ: تَدَرَّيْتَ الصَّيْدَ، إِذَا نَظَرْتَ أَيْنَ هُوَ وَلَمْ تَرَهُ بَعْدُ. وَدَرَيْتُهُ: خَتَلْتُهُ). (ابن فارس، ١٩٧٩، ٢٧١/٢-٢٧٢).

انكشـف لنا حينئذ أنّ دلالة (دَرَى) أكثر تصـويرا وتمثيلا لحالة المتلقي من دلالة (عَلِمَ) وأنها أضـافت معنى لا يمكن لأي دلالة أخرى أن تعبر عنه، وعن كوامن نفسية المتلقي في مقام هذا النص.

وأما اختيار الفعل الماضـي في قوله عزّ اسـمه ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ ﴾ مكان ﴿ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ ﴾ الأحزاب: ٦٣ و ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ ﴿١٧﴾ ﴾ الشـورى: ١٧ وقوله تعالى: ﴿ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ ﴾ عبس: ٣ والذي أميل إليه – والله أعلم – أنّه جاء بلفظ الماضـي وكأنّ الأمر قد وقع وانتهى، وكأننا نعيش مشـهد مسـتنسـخا !! قد عشـناه من قبلُ، ودلالة الماضـي هنا وقعها في النفس وقْعٌ جلل، بخلاف دلالة المضارع التي تفيد التجدد والاستمرار، والقارعة إنما تحصل مرة واحدة فناسب ذلك دلالة الماضي (قَالَ سُـفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ: كُلُّ شَـيْءٍ فِي الْقُرْآنِ مَا أَدْرَاكَ فَقَدْ أَخْبَرَ الرَّسُـولُ بِهِ وَكُلُّ شَـيْءٍ فِيهِ مَا يُدْرِيكَ لَمْ يُخْبِرْ بِهِ كَقَوْلِهِ: ﴿ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ ﴿١٧﴾ ﴾). (الرازي، ١٤٢٠هـ، ١١٧/٣١)

(وَمَا كَانَ مِنْ لَفْظِ أَدْرَاكَ فَإِنَّهُ مُفَسِّـرٌ لِمُبْهَمٍ غَيْرِ معين كقوله: وَما أَدْراكَ مَا الْقارِعَةُ). (الرزاي، ١٤٢٠هـ، ١٧٣/٤).

فإن قال قائل ما الفرق إذن بين القارعة والحاقة ؟ أليس كلاهما واحدًا ؟ معنى وتركيبًا؟. وقد أجابَ عن هذا السـؤال الإمام فخر الدين الرازي قائلا: و(نَظِيرُ هَذِهِ الْآيَةِ قَوْلُهُ: الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ وَما أَدْراكَ مَا الْحَاقَّةُ [الْحَاقَّةِ: ١– ٣] ثُمَّ قَالَ الْمُحَقِّقُونَ قَوْلُهُ: الْقارِعَةُ مَا الْقارِعَةُ أَشَـدُّ مِنْ

قَوْلِهِ: الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ لِأَنَّ النَّازِلَ آخِرًا لَا بُدَّ وَأَنْ يَكُونَ أَبْلَغَ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ مِنْهُ زِيَادَةُ التَّنْبِيهِ، وَهَذِهِ الزِّيَادَةُ لَا تَحْصُلُ إِلَّا إِذَا كَانَتْ أَقْوَى، وَأَمَّا بِالنَّظَرِ إِلَى الْمَعْنَى، فَالْحَاقَّةُ أَشَدُّ لِكَوْنِهِ رَاجِعًا إِلَى مَعْنَى الْعَدْلِ، وَالْقَارِعَةُ أَشَدُّ لِمَا أَنَّهَا تَهْجُمُ عَلَى القلوب بالأمر الهائل) (الرزاي، ١٤٢٠هـ، ٢٦٦/٣٢)، فـ(هِيَ الَّتِي تَقْرَعُ النَّاسَ بِالْأَفْزَاعِ وَالْأَهْوَالِ، وَالسَّمَاءَ بِالِانْشِقَاقِ وَالِانْفِطَارِ، وَالْأَرْضَ وَالْجِبَالَ بِالدَّكِّ وَالنَّسْفِ، وَالنُّجُومَ بِالطَّمْسِ وَالِانْكِدَارِ، وَإِنَّمَا قَالَ: كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعادٌ بِالْقارِعَةِ وَلَمْ يَقُلْ: بِهَا، لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّ مَعْنَى الْقَرْعِ حَاصِلٌ فِي الْحَاقَّةِ، فَيَكُونُ ذَلِكَ زِيَادَةً عَلَى وَصْفِ شِدَّتِهَا) (الرازي، ١٤٢٠هـ، ٦٢١/٣٠).

ثالثاً: الآية الرابعة: ﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴾

في هذه الآية العظيمة مشهد يأسر النفس، ويقطع الأنفاس من هوله وشدته، وقدرة بلاغية وأسلوبية مُنْتَجة من مبدع مقتدر، جلّت حكمته، فهو ينتقل من مجال المسموع إلى مجال المرئي (:القارعة) تنبيه شديد للأذن مبنى ومعنى فهي وصف من القرع وهو ضرب جسم بآخر بشدة لها صوت – كما بينته في بداية السورة– إلى مجال المرئي حيث الناس كالفراش المبثوث في مشهد غريب يفاجئ البصر!!.

وهنا ربما يسأل سائل لمَ قال كالفراش ؟ ولم يقلْ كالجَرَاد ؟ كما في سورة القمر ﴿ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ ﴾ ولِمَ الفراش بالذات ؟ وللإجابة عن هذا التساؤل لا بد لنا من معرفة الفراش ؟ فقد اختلف فيه فقَالَ (قَتَادَةُ: هُوَ الطَّيْرُ الَّذِي يَتَسَاقَطُ فِي النَّارِ. وَقَالَ الْفَرَّاءُ: غَوْغَاءُ الْجَرَادِ، وَهُوَ صَغِيرُهُ الَّذِي يَنْتَشِرُ فِي الْأَرْضِ يَرْكَبُ بَعْضُهُ بَعْضًا مِنَ الْهَوْلِ. وَقِيلَ: الْفَرَاشُ طَيْرٌ دَقِيقٌ يَقْصِدُ النَّارَ، وَلَا يَزَالُ يَتَقَحَّمُ عَلَى الْمِصْبَاحِ وَنَحْوِهِ حَتَّى يَحْتَرِقَ) (ابو حيان الأندلسي، ١٤٢٠هـ ٥٣٣/١٠)، ولعلّ التعريف الأخير للفراش هو الأنسب والأقرب لمقصد السورة، وتمثيل المشهد أنهم (شُبِّهُوا فِي الْكَثْرَةِ وَالِانْتِشَارِ وَالضَّعْفِ وَالذِّلَّةِ وَالْمَجِيءِ وَالذَّهَابِ عَلَى غَيْرِ نِظَامٍ، وَالتَّطَايُرِ إِلَى الدَّاعِي مِنْ كُلِّ جِهَةٍ حَتَّى تَدْعُوَهُمْ إِلَى نَاحِيَةِ الْمَحْشَرِ، كَالْفَرَاشِ الْمُتَطَايِرِ إِلَى النَّارِ. قَالَ جَرِيرٌ:

إِنَّ الْفَرَزْدَقَ مَا عَلِمْتُ وَقَوْمَهُ... مِثْلُ الْفَرَاشِ عشين نَارَ الْمُصْطَلِي

وَقَرَنَ بَيْنَ النَّاسِ وَالْجِبَالِ تَنْبِيهًا عَلَى تَأْثِيرِ تِلْكَ الْقَارِعَةِ فِي الْجِبَالِ حَتَّى صَارَتْ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ فَكَيْفَ يَكُونُ حَالُ الْإِنْسَانِ عِنْدَ سَمَاعِهَا؟) (ابو حيان الأندلسي، ١٤٢٠هـ ٥٣٣/١٠).

ومن ملامح الأسلوبية البديعة، أنّ لهذه الآية ارتباط وثيق بخاتمة السورة ﴿ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴾ والمناسبة قوية جدا لأن من شأن الفراش التهافت على النار وهو نفسه ذكر هذا المعنى

! ثم إن تشبيه الناس بالفراش في سياق ذكر النار الحامية غاية في التصوير والإبداع، وقوة في الربط والإقناع.

وتشبيه تهافت الفراش على النار تشبيه شائع عند العرب كما وجدناه عند جرير قبل قليل، والأحسن من ذلك ما رواه الإمام مسلم في صحيحه من حديث مُحَمَّدُ بْنُ رَافِعٍ عن أبي هريرة ﷺ قال: ((عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرَ أَحَادِيثَ مِنْهَا، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَثَلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهَا جَعَلَ الْفَرَاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ الَّتِي فِي النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا وَجَعَلَ يَحْجُزُهُنَّ وَيَغْلِبْنَهُ فَيَتَقَحَّمْنَ فِيهَا قَالَ فَذَلِكُمْ مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ أَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ عَنْ النَّارِ هَلُمَّ عَنْ النَّارِ هَلُمَّ عَنْ النَّارِ فَتَغْلِبُونِي تَقَحَّمُونَ فِيهَا)).(الامام مسلم، ٣٩٩/١١)

ثم إنّ وصف هذا الفراش بالمبثوث – أي الْمُفَرَّقُ – هو أفضل وصف، وأبلغ تشبيه، وأدق تصوير لحالة الناس يومئذ.

بقي لنا أن نعرف الفرق بين بين التشبيهين أعني بهما– الجراد والفراش – وقد أجاب فخر الدين الرازي عن هذا السؤال قائلا: (أَمَّا وَجْهُ التَّشْبِيهِ بِالْفَرَاشِ، فَلِأَنَّ الْفَرَاشَ إِذَا ثَارَ لَمْ يَتَّجِهْ لِجِهَةٍ وَاحِدَةٍ، بَلْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا تَذْهَبُ إِلَى غَيْرِ جِهَةِ الْأُخْرَى، يَدُلُّ هَذَا عَلَى أَنَّهُمْ إِذَا بُعِثُوا فَزِعُوا، وَاخْتَلَفُوا فِي الْمَقَاصِدِ عَلَى جِهَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ غَيْرِ مَعْلُومَةٍ، وَالْمَبْثُوثُ الْمُفَرَّقُ، يُقَالُ: بَثَّهُ إِذَا فَرَّقَهُ. وَأَمَّا وَجْهُ التَّشْبِيهِ بِالْجَرَادِ فَهُوَ فِي الْكَثْرَةِ. قَالَ الْفَرَّاءُ: كَغَوْغَاءِ الْجَرَادِ يَرْكَبُ بَعْضُهُ بَعْضًا، وَبِالْجُمْلَةِ فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى شَبَّهَ النَّاسَ فِي وَقْتِ الْبَعْثِ بِالْجَرَادِ الْمُنْتَشِرِ، وَبِالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ، لِأَنَّهُمْ لَمَّا بُعِثُوا يَمُوجُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ كَالْجَرَادِ والفراش، ويأكد مَا ذَكَرْنَا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: فَتَأْتُونَ أَفْواجاً [النَّبَأ: ١٨... فَإِنْ قِيلَ: الجراد/ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْفَرَاشِ كِبَارٌ، فَكَيْفَ شَبَّهَ الشَّيْءَ الْوَاحِدَ بِالصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ مَعًا؟ قُلْنَا: شَبَّهَ الْوَاحِدَ بِالصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ لَكِنْ فِي وَصْفَيْنِ. أَمَّا التَّشْبِيهُ بِالْفَرَاشِ فَبِذَهَابِ كُلِّ وَاحِدَةٍ إِلَى غَيْرِ جِهَةِ الْأُخْرَى وَأَمَّا بِالْجَرَادِ فَبِالْكَثْرَةِ وَالتَّتَابُعِ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّهَا تَكُونُ كِبَارًا أَوَّلًا كَالْجَرَادِ، ثُمَّ تَصِيرُ صِغَارًا كَالْفَرَاشِ بِسَبَبِ احْتِرَاقِهِمْ بِحَرِّ الشَّمْسِ). (الرازي، ١٤٢٠هـ، ٢٦٦/٣٢–٢٦٧).

رابعاً: الآية الخامسة ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥﴾

مشهد آخر من مشاهد يوم القيامة، وتصوير في غاية الغرابة يجمع بين الثقل والخفة، والصّلب والرّقة، وكيف لا وأنّ هذه الجبال التي يكون وقع اختيارها وارتباطها في المخيال البشري بالثقل والخلود، ومن ثم يكون تحول الجبل إلى نقيض معناه مفارقة دلالية مثيرة للمتلقي، فالعرب تضرب به المثل في الثقل(ابن منظور، ١٤١٤هـ، ١٥/٣) والخلود، ويظهر ذلك جليّا في قول لبيد بن ربيعة (ديوان لبيد، ٢٠٠٤، ٥٦):

بَلِينا ومَا تَبلَى النّجومُ الطَّوالِعُ... وتَبْقَى الجِبالُ بَعْدَنَا والمَصانِعُ

ثم ما بين غمضة عين وانتباهتها تكون هذه الجبال كـــ(العهن) وأيّ عِهْن ؟ إنه الصوف الملوّن ألوانا، وفي هذا كمال الارتباط والتناســـق بين العهن والجبال (ابو محمد عبدالحق، ١٤٢٢هـ، ٥١٥/٥) فقد قال تعالى في سـورة فاطر: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾﴾ فاطر: ٢٧

ولكننا نتساءل عن سرّ اختيار الوحدة اللغوية (المنفوش) لِمَ وصف العهن بالمنفوش ؟ بخلاف سورة المعارج مكتفيا بـــ (العهن) وحده ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾﴾ المعارج: ٩ وما الفرق بينهما؟.

وقبل الشـــروع في الإجابة عن هذه الأســـئلة يتحتم علينا أن نرجع إلى محدّد دلالة (المنفوش) عند العرب، قال ابن فارس: (نَ فَ شَ) (النُّونُ وَالْفَاءُ وَالشِّينُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى انْتِشَـارٍ. مِنْ ذَلِكَ نَفْشُ الصُّـوفِ، وَهُوَ أَنْ يُطْرَقَ حَتَّى يَتَنَفَّشَ. وَنَفَشَ الطَّائِرُ جَنَاحَيْهِ. وَنَفَشَـتِ الْإِبِـلُ: تَرَدَّدَتْ وَانْتَشَـرَتْ بِلَا رَاعٍ. وَفِعْلُهَـا النَّفْشُ) (ابن فـارس، ١٩٧٩، ٤٦١/٥، و ابن منظور ١٤١٤، ٣٥٧/٦).

وقد ذكر ابن عطية النفش فقال: (والنفش: خلخلة الأجزاء وتفريقها عن تراصـــها، وفي قراءة ابن مسعود وابن جبير: «كالصوف المنفوش»).(ابو محمد عبدالحق، ١٤٢٢هـ، ٥١٧/٥).

إذن معناه العام هو الانتشار، والخلخلة، وفي هذا المعنى ترابط واتساق واضح بيّنٌ بين (المبثوث) و(المنفوش) إذ يلتقيان معجميا عند معنى الانتشار...وصرفيا عند صيغة اسم المفعول الدالة على ما لم يسم فاعله، وهذه الصيغة وأخواتها (صيغ البناء للمجهول وصيغ المطاوعة) هي المهيمنة اللغوية في وصف القرآن للقيامة وإرهاصاتها. ومن هذا الترابط أيضا المماثلة الصوتية، حيث نجد حرف (الثاء) في كلا الدلالتين، والثاء كما هو معرف يحمل صـــفة (الهمس) والهمس هو جريان النفس وانتشاره عند النطق بالحرف (ابن سعيد الداني، ١٤١١هـ، ١٩/٢) ؛ لضعف الاعتماد على المخرج'(فريال زكريا العبد، ٨٨). وفي كلا الدلالتين جاء حرف الواو المديّة بعد الثاء مما يتيح الانتشار أكثر، ويصور المشهد أدقّ وأجزل.

وقد التفت العلماء إلى حالة الجبال يومئذ وكيف أنها تمر بمراحل حتى تصل إلى العهن المنفوش قال الإمام الرازي:(قَدْ وَصَـــفَ اللَّهُ تَعَالَى تَغَيُّرَ الْأَحْوَالِ عَلَى الْجِبَالِ مِنْ وُجُوهٍ أَوَّلُهَا: أَنْ تَصِيرَ قِطَعًا، كَمَا قال: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾﴾ الحاقة: ١٤، وَثَانِيهَا: أَنْ تَصِيرَ كَثِيبًا مَهِيلًا، كَمَا قَالَ: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾النمل: ٨ ثُمَّ تَصِـــيرُ ﴿كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾﴾ القارعة: ٥، وَهِيَ أَجْزَاءٌ كَالذَّرِّ تَدْخُلُ/ مِنْ كُوَّةِ الْبَيْتِ لَا تَمَسُّـــهَا

الْأَيْدِي، ثُمَّ قَالَ: فِي الرَّابِعِ تَصِيرُ سَرَابًا، كَمَا قَالَ ﴿ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ ﴾ النبأ: ٢٠. (الرازي، ١٤٢٠هـ، ٢٦٧/٣٢).

وتقييد (العهن) بالمنفوش تقييد في غاية التهويل، والتخويف، وإذا ما أردنا أن نوازن بين الآيتين: الآية في سورة المعارج، والآية في سورة القارعة يمكننا القول: إن ما تقدم من ذكر اليوم الآخر في سورة القارعة، أهول وأشد مما ذكر في سورة المعارج. فقد قال في سورة المعارج:(تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة * فاصبر صبراً جميلاً * إنهم يرونه بعيداً* ونراه قريباً). وليس متفقاً على تفسير أن المراد بهذا اليوم، هو اليوم الآخر. وإذا كان المقصود به اليوم الآخر فإنه لم يذكر إلا طول ذلك اليوم، وأنه تعرج الملائكة والروح فيه. في حين قال في سورة القارعة (القارعة * ما القارعة * وما أدراك ما القارعة) فكرر ذكرها وعَظَّمها وهوَّلها. فناسب هذا التعظيم والتهويل أن يذكر أن الجبال تكون فيه كالعهن المنفوش. وكونها كالعهن المنفوش أعظم وأهول من أن تكون كالعهن من غير نفش كما هو ظاهر.

ثم إنه لما ذكر القارعة في أول السورة، والقارعة من (القَرْعِ)، وهو الضرب بالعصا ونحوها كما ذكرناه في بداية السورة، فناسب ذلك ذكر النفش ؛ لأن من طرائق نفش الصوف أن يُقرعَ بالمقرعة. كما ناسب ذلك من ناحية أخرى وهي أن الجبال تهشم بالمقراع – وهو من القَرْع – وهو فأس عظيم تحطم به الحجارة (الزبيدي، د.ت، ٥٤٧/٢١)، فناسب ذلك ذكر النفش أيضاً. فلفظ القارعة أنسب شيء لهذا التعبير. كما ناسب ذكر القارعة ذكر (الفراش المبثوث) في قوله: ﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴾ لأننا إذا قرعنا طار الفراش وانتشر. ولم يحسن ذكر (الفراش) وحده كما لم يحسن ذكر (العهن) وحده.

وقد التفت الدكتور فاضل صالح السامرائي إلى هذا التخصيص – أعني به – (المنفوش) فقال متحدثا عن هذه العلاقة:

- ذكر في سورة المعارج أن العذاب (واقع) وأنه ليس له دافع ووقوع الثقل على الصوف، من غير دفع له لا ينفشه بخلاف ما في القارعة، فإنه ذكر القرع وكرره، والقرع ينفشه وخاصة إذا تكرر، فناسب ذلك ذكر النفش فيها أيضاً.
- التوسع والتفصيل في ذكر القارعة حسَّن ذكر الزيادة والتفصيل فيها، بخلاف الإجمال في سورة المعارج، فإنه لم يزد على أن يقول:(في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة).
- إن الفواصل في السورتين تقتضي أن يكون كل تعبير في مكانه، ففي سورة القارعة،﴿ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ ﴾ القارعة: ٥. فناسبت كلمة (المنفوش) كلمةَ (المبثوث). وفي سورة المعارج، قال ﴿ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ ﴾ المعارج: ٨ - ٩. فناسب (العهن) (المهل).

- ناسب ذكر العهن المنفوش أيضاً قوله في آخر السورة:(نار حامية) لأن النار الحامية هي التي تذيب الجبال، وتجعلها كالعهن المنفوش، وذلك من شدة الحرارة، في حين ذكر صفة النار في المعارج بقوله:(﴿ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ ﴾ المعارج: ١٦. والشوى هو جلد الإنسان. والحرارة التي تستدعي نزع جلد الإنسان أقل من التي تذيب الجبال، وتجعلها كالعهن المنفوش، فناسب زيادة (المنفوش) في القارعة من كل ناحية. والله أعلم.(د. فاضل السامرائي، ٢٠٠٦، ١٨٦).

وبناء على ذلك تكون السورة قد اختزلت تأريخ القيامة في لحظتين:
الأولى: **لحظة الابتداء**: حين يخرج الناس من الأجداث كالفراش المبثوث.
والثانية: **لحظة الانتهاء**: حين يستقر كل فريق في مأواه، وأيّ بلاغة بعد هذا ؟؟؟

خامساً: الآيتان السادسة والسابعة﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ ﴾

نجد في هذا السياق أنّ الله –عزّ اسمه – ذكر صفة (عِيشة) أولئك الذين ثَقُلت موازينهم ففرحوا بلذّة القبول والرضا من الله، فقال: ﴿ **فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ** ﴾ وقد يقول قائل لِمَ قال راضية وهي مرضية ؟ أي: لِمَ أطلق اسم المفعول وأراد به اسم الفاعل ؟ ولِمَ قال في سورة الفجر ﴿رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ . وقد اخلف العلماء في تأويل راضية إلى قولين وهما:

- إنّ معناها: ذات رضى على النّسب، وهذا قول الخليل وسيبويه،(ابو محمد عبدالحق، ١٤٢٢هـ، ٥١٧/٥). أي: الْمَعْنَى أَنَّهَا مَنْسُوبَةٌ إِلَى الرِّضَا كَالدَّارِعِ وَالنَّابِلِ، وَالنِّسْبَةُ نِسْبَتَانِ نِسْبَةٌ بِالْحُرُوفِ وَنِسْبَةٌ بِالصِّيغَة.(الرازي، ١٤٢٠هـ، ٦٢٨/٣٠).
- وَالثَّانِي: أَنَّهُ جَعَلَ الرِّضَا لِلْعِيشَةِ مَجَازًا مَعَ أَنَّهُ صَاحِبُ الْعِيشَةِ.(الرازي، ١٤٢٠هـ، ٦٢٩/٣٠).
- وَالثَّالِثُ: أَنَّهُ وَاسِعٌ بِمَعْنَى ذُو سَعَةٍ، وَيَجِيءُ فَاعِلٌ وَمَعْنَاهُ ذُو كَذَا، كَقَوْلِهِ: (عِيشَةٍ راضِيَةٍ) أَيْ: ذَاتِ رِضًا، وَهَمٌّ نَاصِبٌ ذُو نَصَبٍ.(الرازي، ١٤٢٠هـ، ٥٠٥/٦).

ثم فصل الإمام الرازي القول في مناسبة الرضا للمعيشة فقال: (ذَكَرُوا فِي حَدِّ الثَّوَابِ أَنَّهُ لَا بُدَّ وَأَنْ يَكُونَ مَنْفَعَةً، وَلَا بُدَّ وَأَنْ تَكُونَ خَالِصَةً عَنِ الشَّوَائِبِ، وَلَا بُدَّ وَأَنْ تَكُونَ دَائِمَةً وَلَا بُدَّ وَأَنْ تَكُونَ مَقْرُونَةً بِالتَّعْظِيمِ، فَالْمَعْنَى إِنَّمَا يَكُونُ مَرْضِيًّا بِهِ مِنْ جَمِيعِ الْجِهَاتِ لَوْ كَانَ مُشْتَمِلًا عَلَى هَذِهِ الصِّفَاتِ فَقَوْلُهُ: عِيشَةٍ راضِيَةٍ كَلِمَةٌ حَاوِيَةٌ لِمَجْمُوعِ هَذِهِ الشَّرَائِطِ الَّتِي ذكرناها). (الرازي، ١٤٢٠هـ، ٦٢٩/٣٠). ثم بين الفرق بين (راضية) و (مرضية) فقال: (أَنَّ مُنْتَهَى دَرَجَةِ الْعَبْدِ أَنْ يَكُونَ رَاضِيًا مِنْ ربه مرضيا لربه على ما قال: يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلى رَبِّكِ راضِيَةً مَرْضِيَّةً [الْفَجْرِ: ٢٧، ٢٨] وَكَوْنُهَا رَاضِيَةً مِنْ رَبِّهِ، أَقَلُّ دَرَجَةً مِنْ كَوْنِهَا مَرْضِيَّةً لِرَبِّهِ)(الرازي، ١٤٢٠هـ، ٧٥٧/٣٠).

والذي يبدو لي – والله أعلم – أنها جاءت على الحقيقة إذ لا مجاز فيها، ولا عدول من صيغة إلى أخرى، وعلى هذا تكون الـــ(العيشة) راضية حقيقة بما رأت من نِعم الله وسعة فضله ورحمته، وهذا ما يعرف عند الأسلوبيين بـ(الأنسنة).

سادساً: الآيتان الثامنة والتاسعة ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ ﴾

في هذا النص محددين أســـلوبيين هما (فَأُمُّهُۥ) و (هَاوِيَةٌ بِهِمْ) فقد ذهب المفســـرون مذاهب شتّى في سبب استعمال دلالة (أمّهُ) في هذا السياق، فنقل لنا الإمام الطبري (الطبري، ٢٠٠٠، ٥٧٦/٢٤) عدة أقوال هي:

- عن قتادة (فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ) قال: يهوي في النار على رأسه.
- عن ابن زيد، في قوله: (فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ) قال: الهاوية: النار، هي أمُه ومأواه التي يرجع إليها، ويأوي إليها، وقرأ: (وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ).

وذهب الأمام الرازي في تفسيره الكبير (الرازي، ١٤٢٠هـ، ٢٦٨/٣٢) إلى سبب تسمية النار بالأم فقال:

- أَنَّ الْهَاوِيَةَ مِنْ أَسْمَاءِ النَّارِ وَكَأَنَّهَا النَّارُ الْعَمِيقَةُ يَهْوِي أَهْلُ النَّارِ فِيهَا مَهْوًى بَعِيدًا، وَالْمَعْنَى فَمَأْوَاهُ النَّارُ،
- وَقِيلَ: لِلْمَأْوَى أُمٌّ عَلَى سَبِيلِ التَّشْبِيهِ بِالْأُمِّ الَّتِي لَا يَقَعُ الْفَزَعُ مِنَ الْوَلَدِ إِلَّا إِلَيْهَا
- وَثَانِيهَا: فَأُمُّ رَأْسِهِ هَاوِيَةٌ فِي النَّارِ ذَكَرَهُ الْأَخْفَشُ وَالْكَلْبِيُّ وَقَتَادَةُ قَالَ: لِأَنَّهُمْ يهوون في النار على رؤوسهم
- وَثَالِثُهَا: أَنَّهُمْ إِذَا دَعَوْا عَلَى الرَّجُلِ بِالْهَلَاكِ قَالُوا: هَوَتْ أُمُّهُ لِأَنَّهُ إِذَا هَوَى أَيْ سَقَطَ وَهَلَكَ فَقَدْ هَوَتْ أُمُّهُ حُزْنًا وَثُكْلًا، فَكَأَنَّهُ قِيلَ: وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَقَدْ هلك.

ويذهب معللا عن سرِّ اختار هذه الدلالة ناقلا عن ابن عباس (فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ) (وهو مثلها، وإنما جعل النار أمَّه، لأنها صـــارت مأواه، كما تؤوي المرأة ابنها، فجعلها إذ لم يكن له مأوى غيرها، بمنزلة أمّ له). (الطبري، ٢٠٠٠، ٥٧٦/٢٤)

والذي يبدو لي – والله أعلم – أنّ اختيار (الأم) بهذا المعنى لا يتسـق مع معنى الســورة وأجوائها: فكلمة الأم تصـــحبها عادة هالة من الدلالات الإيحائية من اللطافة والرقة والحنان والاطمئنان، وفكرة العودة إلى الأم لا تنفصل في الوعي الإنساني عن الحنين إلى المأوى، واللمسة الحانية، والحضن الآمن، فأنّى تتصل هذه المعاني بمصير أعداء الله!! وأنى لجهنم أن تكون أمّا بالنظر إلى هذه الدلالات الإيحائية!!

وقول قتادة: (يهوي في النار على رأسه) هو التفسير الأقرب إلى واقع السورة ودلالتها، وسياق النصّ فيها، حيث تُتخيل النار – أعاذنا الله منها– حفرة هاوية، يسقط فيها، مع إيحاء بالهلاك والرعب والظلمات.

ثم إنّ دلالة (هاوية) دلالة صوتية تصويرية عجيبة، لحالة النّار وهولها، وأحوال أهل النار وشعورهم بها !! إذ نجد أنّ المُبدِع لم يستخدم دلالة (ناكِسة) أو (ساقطة) أو (نازلة) مثلما استعملها في مواضع أخرى، كما في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ ﴾ الأنبياء: ٦٥ وقوله: ﴿ هَٰذَا نُزُلُهُمۡ يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾ ﴾ الواقعة: ٥٦ وقوله تعالى: ﴿ وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ ٱئۡذَن لِّي وَلَا تَفۡتِنِّيٓۚ أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ التوبة: ٤٩ .

جاء بدلالة هاوية من جذر (هَ وِ يَ) (الْهَاءُ وَالْوَاوُ وَالْيَاءُ: أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى خُلُوٍّ وَسُقُوطٍ.... وَيُقَالُ هَوَى الشَّيْءُ يَهْوِي: سَقَطَ. وَهَاوِيَةُ: جَهَنَّمُ ; لِأَنَّ الْكَافِرَ يَهْوِي فِيهَا. وَالْهَاوِيَةُ: كُلُّ مَهْوَاةٍ. وَالْهُوَّةُ: الْوَهْدَةُ الْعَمِيقَةُ)[٤٥]،(ابن فارس، ١٩٧٩، ١٥/٦) التي حوت دلالات نظائرها وصورت المشهد تصويرا منقطع النظير، حيث الهاء مهموسة يجري النفس عند النطق بها، وهي في الوقت نفسه حرف مهتوت يخرج من الجوف بلا حاجز أو مانع، كذلك سقوطهم حيث لا شيءَ يحجزهم ولا حيلولة تمنعهم من السقوط والعياذ بالله.

سابعاً: الآية العاشرة ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ﴿١٠﴾ ﴾

للوهلة الأولى قد يقول قائل لِمَ قال في أول السورة ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ﴿٣﴾ ﴾ فذكر اللفظ صريحا بعد (ما) – كما بينته في باكورة بحثي – وقال هنا ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ﴿١٠﴾ ﴾ مكتفيا بالضمير فقط ؟؟ أما كان الأولى أن يقال: (وما أدراك ما الهاوية) ليتساوى المقطعان لفظا ودلالة ؟ في الحقيقة لم تكن هذه التساؤلات خافية عن علماء العربية فقد انتبهوا إليها، وحلّلوا كُنْهَ سرّها ومدلولها قال الإمام الرازي: (قُلْنَا: الْفَرْقُ أَنَّ كَوْنَهَا قَارِعَةً أَمْرٌ مَحْسُوسٌ، أَمَّا كَوْنُهَا هَاوِيَةً فَلَيْسَ كَذَلِكَ، فَظَهَرَ الْفَرْقُ بَيْنَ الْمَوْضِعَيْنِ وَثَانِيهَا: أَنَّ ذَلِكَ التَّفْصِيلَ لَا سَبِيلَ لِأَحَدٍ إِلَى الْعِلْمِ بِهِ إِلَّا بِإِخْبَارِ اللَّهِ وَبَيَانِهِ، لِأَنَّهُ بَحْثٌ عَنْ وُقُوعِ الْوَقَعَاتِ لَا عَنْ وُجُوبِ الْوَاجِبَاتِ، فَلَا يَكُونُ إِلَى مَعْرِفَتِهِ دَلِيلٌ إِلَّا بِالسَّمْعِ) (الرازي، ١٤٢٠هـ، ٢٦٦/٣٢) واختلف في عود الضمير في (وَما أَدْراكَ مَا هِيَهْ) فهِيَ (ضَمِيرٌ يَعُودُ عَلَى هَاوِيَةٍ إِنْ كَانَتْ كَمَا قِيلَ دَرَكَةٌ مِنْ دَرَكَاتِ النَّارِ مَعْرُوفَةٌ بِهَذَا الِاسْمِ، وَإِنْ كَانَتْ غَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا قِيلَ فَهِيَ ضَمِيرُ الدَّاهِيَةِ الَّتِي دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُهُ: فَأُمُّهُ هاوِيَةٌ، والهاء فيما هِيَهْ هَاءُ السَّكْتِ، وَحَذَفَهَا فِي الْوَصْلِ ابْنَ أَبِي إِسْحَاقَ وَالْأَعْمَشَ وَحَمْزَةُ، وَأَثْبَتَهَا الْجُمْهُورُ: نارٌ: خَبَرُ مُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ، أَيْ هِيَ نَارٌ، أَعَاذَنَا اللَّهُ مِنْهَا بِمَنِّهِ وكرمه).(ابو حيان الاندلسي، ١٤٢٠هـ، ٥٣٤/١٠).

ثامناً: الآية الحادية عشر﴿ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴿١١﴾ ﴾

نلحظ في هذا النص أنّ الله وصف النار بـــ (الحامية) والنار معروفة بحرارتها، وإحراقها إذن فلِمَ قال: (حامية) ؟

لا شـــك أنّ لفظة (حامية) مرتبطة بما قبلها – بالعهن المنفوش – وذلك لتعطي للنار صـــفة المبالغة في الإحراق والإذابة؛ لأن النار الحامية هي التي تذيب الجبال وذلك من شـــدة الحرارة، في حين ذُكِرَت صفة النار في المعارج بقوله:﴿ كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ ﴾ والشوى هو جلد الإنســان. والحرارة التي تســتدعي نزع جلد الإنســان أقل من التي تذيب الجبال، وتجعلها كالعهن المنفوش، فناسب زيادة (المنفوش) في القارعة من كل ناحية.

كما أن ذكر النار الحامية مناسب للقارعة من ناحية أخرى، ذلك أن (القَرَّاعة) – وهي من لفظ القارعة – هي القداحة التي تقدح بها النار. فناســب ذكر القارعة، ذكر الصـــوف المنفوش، وذكر النار الحامية، فناسب آخر السورة أولها. وبهذا نرى أن ذكر القارعة حسَّنَ ذكر (المبثوث) مع الفراش، وذكر (المنفوش) مع الصوف، وذكر النار الحامية في آخر السورة.

فمن شــدة هذه النار التي أضــافت لها دلالة – حامية– وكأنها(نَارُ الدُّنْيَا فِي جَنْبِ نَارِ الْآخِرَةِ كَأَنَّهَا لَيْسَــتْ بِنَارٍ، وَلِذَلِكَ قَالَ فِي آخِرِ السُّــورَةِ: ﴿ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴿١١﴾ ﴾ تَنْبِيهًا عَلَى أَنَّ نَارَ الدُّنْيَا فِي جَنْبِ تِلْكَ لَيْسَــتْ بِحَامِيَةٍ، وَصَــارَ آخِرُ السُّــورَةِ مُطَابِقًا لأولها من هذا الوجه). (الرازي، ١٤٢٠هـ، ٢٦٦/٣٢). **وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين، وصلى الله تعالى على المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه أجمعين.**

قائمة المصادر والمراجع

بعد القرآن العظيم

أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين،(ت: ٧٤٥هـ،١٤٢٠ هـ (البحر المحيط في التفسير)، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر – بيروت،.

الزَّبيدي، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، (ت: ١٢٠٥هـ)، (تاج العروس من جواهر القاموس)، المحقق: مجموعة من المحققين، دار الهداية.

الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر، (ت: ٣١٠هـ)، ١٤٢٠ هـ. (جامع البيان في تأويل القرآن)، المحقق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١، –٢٠٠٠ م.

ابن سعيد الداني، لأبي عمرو عثمان، (ت: ٤٤٤ هـ)، ١٤١١ هـ – ١٩٩٠ م. (الدر النثير والعذب النمير في شرح مشكلات وحل مقفلات اشتمل عليها كتاب التيسير)، تحقيق ودراسة: أحمد عبد الله أحمد المقرئ، دار الفنون للطباعة والنشر – جدة.

ديوان لبيد بن ربيعة العامري: لَبِيد بن ربيعة بن مالك، أبو عقيل العامري الشاعر معدود من الصحابة، (ت: ٤١هـ)، اعتنى به: حمدو طمّاس، دار المعرفة، ط١، ١٤٢٥ هـ –٢٠٠٤ م.

البروسوي، إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي، المولى أبو الفداء (ت: ١١٢٧هـ)، (روح البيان)، دار الفكر – بيروت.

ابن منظور،: محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين الأنصاري الرويفعي الإفريقي، (ت: ٧١١هـ) ١٤١٤ هـ.(لسان العرب)، دار صادر – بيروت، ط٣.

أ. د. فاضل صالح السامرائي، ١٤٢٧هـ _ ٢٠٠٦م.(لمسات بيانية في نصوص التنزيل)، شركة العاتك لصناعة الكتاب، الطبعة الثانية – القاهرة.

أبو محمد عبد الحق، ابن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي، (ت: ٥٤٢هـ)، ١٤٢٢ هـ، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز:، المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١.

الامام مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ) (المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله –صلى الله عليه وسلم–)، المؤلف: المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي. الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

ابن فارس، أحمد بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (ت: ٣٩٥هـ)، ١٣٩٩هـ –١٩٧٩م. (معجم مقاييس اللغة: المحقق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر.

الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري، (ت: ٦٠٦هـ)، ١٤٢٠ هـ (مفاتيح الغيب = التفسير الكبير)، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط٣.

ابن الجزري، شمس الدين أبو الخير، محمد بن محمد بن يوسف، (ت: ٨٣٣هـ)، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م. (منظومة المقدمة فيما يجب على القارئ أن يعلمه (الجزرية))، دار المغني للنشر والتوزيع، ط١.

زكريا، فريال العبد، (الميزان في أحكام تجويد القرآن)، الناشر: دار الإيمان – القاهرة.

Abu Hayyan al-Andalusi, Muhammad ibn Yusuf ibn Ali ibn Yusuf ibn Hayyan Athir al-Din. (d. 745 AH/1420 CE). *Al-Bahr al-muhit fi al-tafsir*. Ed: Sadqi Muhammad Jamil. Dar al-Fikr.

Beirut.

Abu Muhammad, ‘Abd al-Haqq ibn Ghalib ibn ‘Abd al-Rahman ibn Tammām ibn ‘Atiyyah al-Andalusi al-Muharbi. (d. 542 AH). (1422 AH). *Al-muḥarrar al-wajīz fī tafsīr al-kitāb al-‘azīz*. Ed. ‘Abd al-Salam ‘Abd al-Shafi Muhammad. 1st edition. Dar al-Kutub al-‘Ilmiyyah. Beirut.

Al-Burusawi, Ismail Hakki ibn Mustafa al-Istambouli al-Hanafi al-Khalwati, al-Mawla Abu al-Fada' (d. 1127 AH). *Ruh al-bayan*. Dar al-Fikr. Beirut.

Al-Razi, Abu ‘Abd Allah Muhammad ibn ‘Umar ibn al-Hasan ibn al-Husayn al-Timi al-Razi, al-laqab bi-Fakhr al-Din al-Razi, Khatib al-Rayy (d. 606 AH). (1420 AH). *Miftah al-ghayb = al-tafsir al-kabir*. 3rd edition. Dar Ihya’ al-Turath al-‘Arabi. Beirut.

Al-Samarra’i, Fadil Salih al-Samarra’i. (2006 CE). *Lamsat bayaniyyah fi nusus al-tanzil*. 2nd edition. Al-‘Atak Company for Book Production. Cairo.

Al-Tabari, Muhammad ibn Jarir ibn Yazid ibn Kathir ibn Ghalib al-Amiri, Abu Ja'far. (d. 310 AH). (1420 AH/2000 CE). *Jami' al-bayan fi ta'wil al-Quran*. Ed. Ahmad Muhammad Shakir. 1st ed. Al-Risalah Foundation.

Al-Zabidi, Muhammad ibn Muhammad ibn Abd al-Razzaq al-Husayni. Abu al-Fayd, al-laqab bi-Murtada. (d. 1205 AH). *Taj al-arus min jawaher al-qamus*. Ed: A group of scholars. Dar al-Hidaya.

Diwan Labīd, Labīd ibn Rabi'a ibn Malik Abu 'Uqayl al-'Amrī, the poet counted among the Companions (d. 41 AH). (2004 CE). Edited by Hamdū Ṭammās. 1st edition, Dar al-Ma'rifa.

Ibn al-Jazari, Shams al-Din Abu al-Khair Muhammad ibn Muhammad ibn Yusuf (d. 833 AH). (2001 CE). *Manzuma al-muqaddimah fi ma yajib ‘ala al-qari’ an ya‘lamuh – al-Jazariyyah*. 1st edition. Dar al-Maghni for Publishing and Distribution.

Ibn Faris, Ahmad ibn Zakariyya al-Qazwini al-Razi Abu al-Husayn (d. 395 AH). (1979 CE). *Mu‘jam Maqayis al-Lughah*. Ed. ‘Abd al-Salam Muhammad Harun. Dar al-Fikr.

Ibn Manzur, Muhammad ibn Makram ibn Ali Abu al-Fadl Jamal al-Din al-Ansari al-Ruwayfi al-Ifriqi (d. 711 AH). (1414 AH). *Lisān al-‘Arab*. 3rd edition. Dar Sadir. Beirut.

Ibn Sa'id al-Dani, for Abu 'Amr 'Uthman. (d. 444 AH). (1411 AH/1990 CE). *Al-durr al-nati' wa-l-'adhb al-namir fi sharh mushkilat wa-hall muqaffalat ishtamala 'alayha kitab al-taysir*. Investigation and study by Ahmad 'Abd Allah Ahmad al-Muqri'. Dar al-Funun for Printing and Publishing. Jeddah.

Imam Muslim, Muslim ibn al-Hajjaj Abu al-Hasan al-Qushayri al-Naysaburi. (d. 261 AH). *Al-Musnad al-Sahih al-Mukhtasar bi-Naql al-‘Adl ‘an al-‘Adl ila Rasul Allah*. Ed. Muhammad Fuad ‘Abd al-Baqi. Dar Ihya’ al-Turath al-‘Arabi. Beirut.

Zakariya, Fariyal al-‘Abd. *Al-Mizan fi ahkam tajwid al-Quran*. Dar al-Iman. Cairo.